قصة مترجمة

قصة: المعطف

الكاتب: غلام عباس *
المترجم: أ.د. مجيب الرحمن**

خلفية القصة

(شاب وسيم يتجول في شوارع "شارع مال" (Mall Road) في فصل الشتاء. كان جماله لا يقل عن جمال معطفه؛ فقد كان يسير واضعًا يده في جيب المعطف، متنقلًا من متجر إلى آخر. وفجأة تصدمه شاحنة وتمضي في طريقها. يأخذه بعض الناس إلى المستشفى، وأثناء علاجه هناك، حين تقوم الممرضات بخلع ملابسه، يدهشن عندما يرين حالة الشاب الذي كان مختبئًا تحت ذلك المعطف.)

---

* الأستاذ والرئيس السابق، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيولهي، الهند.

** يكتسب باب الإبداع المترجم في هذا العدد أهمية خاصة بتقديم قصة "المعطف" (Overcoat) للأديب الأردي الكبير غلام عباس (١٩٠٩–١٩٨٢)، أحد أبرز أعلام القصة القصيرة في الأدب الأردي الحديث. وُلد غلام عباس في أمريتسر، وتلقى تعليمه في لاهور، وبدأ الكتابة مبكرًا، ثم عمل في الصحافة والإذاعة، فارتبط بـ"إذاعة عموم الهند"، وتولى تحرير عدد من المجلات الإذاعية، قبل أن ينتقل بعد تقسيم الهند إلى باكستان، كما عمل مدة في هيئة الإذاعة البريطانية (BBC). وقد عُرف غلام عباس بأسلوبه الهادئ المكثف، ونظرته النافذة إلى النفس البشرية والمجتمع، وبقدرته على كشف المفارقات والتناقضات الإنسانية من غير مباشرة أو خطابية؛ ولذلك احتل مكانة متميزة بين كتّاب القصة الأردية في القرن العشرين. ومن أشهر أعماله قصته "آنندي" التي حمل مجموعته القصصية الأولى المنشورة سنة ١٩٤٨ اسمها، إلى جانب مجموعتي "جاڑے کی چاندنی" و"کن رس". وتوفر منصة ريخته (Rekhta) اليوم مادة غنية من تراثه الأدبي، وتدرج له أربعًا وثلاثين قصة قصيرة فضلًا عن كتبه وأعماله الأخرى. نتقدم بالشكر الجزيل إلى منصة "ريخته" على توفيرها مادة أدبية دسمة، وقد أخذت القصة من موقع "ريخته" مع الشكر والتقدير.

وإن ترجمة "المعطف" في هذا العدد ليست مجرد نقل لقصة من الأردية إلى العربية، وإنما هي خطوة في تعريف القارئ العربي بصوت قصصي بارز من أصوات شبه القارة الهندية، وتجسيد لرسالة هلال الهند في فتح نوافذ متبادلة بين الأدب العربي والآداب الهندية.

في إحدى أمسيات شهر يناير, عبر شاب أنيق شارع ديفس رود ووصل إلى شارع مال, ثم اتجه نحو تقاطع تشيرنغ كروس, وأخذ يمشي الهوينى على الرصيف. كان هذا الشاب, من خلال هندامه وقصة شعره وهيئته, يبدو شديد الأناقة ومواكبًا للموضة. سوالفه طويلة, وشعره لامع, وشاربه رقيق كأنه رُسم بقلم من الكحل.

كان يرتدي معطفًا شتويًا دافئًا بلون اللوز, وقد عُلِّقت في عروة المعطف زهرة ورد نصف متفتحة بلون الشراب. وعلى رأسه قبعة خضراء مسطحة وضعها مائلة بطريقة خاصة, وحول عنقه وشاح أبيض من الحرير. كانت إحدى يديه في جيب المعطف, وفي اليد الأخرى عصا صغيرة من الخيزران, كان يديرها أحيانًا في يده بشيء من الزهو والمرح.

كان ذلك مساء يوم السبت, وكان الشتاء في أشد حالاته. كانت الرياح الباردة العاتية تضرب الجسد كأنها شفرة حادة, وكان الناس يسرعون الخطى ليدفئوا أنفسهم, أما هو فلم يكن يبدو متأثرًا بها قط, وكأن التجول في هذا البرد القارس يمنحه متعة خاصة.

كان في مشيته وهيئته شيء من الرشاقة والاعتداد بالنفس, حتى إن سائقي عربات الخيل كانوا يلمحونه من بعيد فيسارعون نحوه بخيولهم, لكنه كان يرفض

بإشارة من عصاه. وحتى سيارة أجرة فارغة توقفت عندما رأته, فأجاب سائقها قائلًا: "لا, شكرًا", وصرفها عنه.

وكلما اقترب من الجزء الأكثر ازدحامًا وحيوية من شارع مال, ازدادت خفته ونشاطه. أخذ يصفر بفمه لحنًا إنجليزيًا راقصًا, وبدأت قدماه تتحركان مع الإيقاع. وفي مرة, حين لم يكن أحد قريبًا منه, انتابه حماس مفاجئ, فركض وحاول أن يقوم بحركة تشبه ضرب الكرة, كما لو كانت مباراة كريكيت تجري أمامه.

وفي الطريق مرّ بالشارع المؤدي إلى حدائق لورنس, لكن الحديقة في ذلك الوقت, وسط ضباب المساء الكثيف, كانت يلفها حزن غريب, فلم يتجه إليها, بل واصل طريقه مباشرة نحو تشيرنغ كروس.

وعندما اقترب من تمثال الملكة, تغير شيء من وقاره وهدوئه. أخرج منديلًا كان قد دسّه في كم معطفه الأيسر بدلًا من وضعه في جيبه, ومسح به وجهه برفق, وكأنه يريد إزالة بعض الغبار الذي ربما علق به.

وبالقرب منه كان بعض الأطفال الإنجليز يلعبون على قطعة من العشب بكرة كبيرة. توقف الشاب وأخذ يشاهد لعبهم باهتمام شديد. ظل الأطفال منشغلين بلعبهم فترة من الزمن دون أن يلتفتوا إليه, لكن حين لاحظوا أنه يراقبهم

باستمرار, بدأوا يشعرون بشيء من الخجل, ثم أمسكوا الكرة فجأة, وراحوا يركضون خلف بعضهم وهم يضحكون, وغادروا قطعة العشب.

وقع بصر الشاب على مقعد إسمنتي فارغ, فاتجه إليه وجلس عليه. وفي تلك اللحظة كانت برودة الجو تزداد مع حلول ظلام المساء. ولم تكن هذه القسوة في البرد منفّرة, بل كانت تبعث على نوع من اللذة وتغري بالاستمتاع. أما الطبقة المترفة من أهل المدينة فلا حاجة إلى الحديث عنها؛ فهي في مثل هذا الطقس تزداد انطلاقًا ومرحًا. وحتى الذين يقضون حياتهم في العزلة تغريهم هذه البرودة, فيخرجون من زواياهم وأماكنهم المنعزلة, ويفكرون في الذهاب إلى المجالس واللقاءات طلبًا لقرب الأجساد من بعضها.

وهذا السعي وراء المتعة هو الذي جذب الناس إلى شارع مال؛ فكانوا, كلٌّ حسب قدرته, يستمتعون في المطاعم والمقاهي وصالات الرقص ودور السينما وغيرها من أماكن الترفيه.

كان شارع مال يعج بالسيارات والعربات والدراجات الهوائية, كما كان الرصيف مكتظًا بالمارة. وإلى جانب ذلك, كانت حركة البيع والشراء نشطة في المحلات الممتدة على جانبي الطريق. أما أولئك الذين لم تكن لديهم القدرة على الترفيه أو

الشراء, فكانوا يقفون بعيدًا, يسلّون أنفسهم بمشاهدة الأضواء المتنوعة الزاهية المنبعثة من أماكن اللهو والمتاجر.

كان الشاب جالسًا على المقعد الإسمنتي يراقب الرجال والنساء الذين يمرون أمامه باهتمام. ولم تكن عيناه تقعان على وجوههم بقدر ما كانت تركز على ملابسهم. كان بينهم أشخاص من كل طبقة وهيئة: كبار التجار, والموظفون الحكوميون, والزعماء, والفنانون, وطلاب وطالبات الكليات, والممرضات, ومراسلو الصحف, وموظفو المكاتب.

كان معظمهم يرتدون المعاطف الشتوية. وكانت هناك أنواع شتى من المعاطف؛ من المعاطف الفاخرة المصنوعة من فرو القراقول إلى المعاطف العسكرية القديمة البالية التي بيعت في المزادات.

أما معطف الشاب نفسه فكان قديمًا إلى حد ما, غير أن قماشه كان ذا جودة عالية, كما أنه كان مخيطًا على يد خياط ماهر. وكان يبدو من النظر إليه أنه يحظى بعناية فائقة. كان الياقة ثابتة في مكانها, وتجاعيد الأكمام واضحة وأنيقة, ولا يكاد يظهر فيه أي أثر للتهالك. وكانت أزراره الكبيرة المصنوعة من القرن تلمع بوضوح. وكان الشاب يبدو شديد الاعتزاز بمعطفه.

مرّ أمامه صبي يحمل صندوقًا صغيرًا معلقًا في عنقه يبيع البان والبيذي والسجائر. فناداه الشاب:

– يا بائع البان!

– نعم يا سيدي؟

– هل لديك فكة لعشرة؟

– ليست معي الآن، لكنني أستطيع أن أحضرها. ماذا تريد؟

– وماذا لو أخذت النقود وهربت؟

– عجبًا يا سيدي! أأنا لص أو محتال حتى أهرب؟ إن لم تثق بي فتعال معي. ماذا تريد؟

– لا، لا، سأحضر الفكة بنفسي. ها هي قطعة نقدية صغيرة خرجت معي. أعطني سيجارة وانصرف.

بعد أن ذهب الصبي، أخذ الشاب يسحب من سيجارته في هدوء ومتعة. كان يبدو سعيدًا على أي حال، وزاد دخان السيجارة من إحساسه بالنشوة والراحة.

اقتربت قطة صغيرة بيضاء, كانت ترتجف من البرد, وجاءت إلى قدميه تحت المقعد وأخذت تموء. داعبها بصوت لطيف, فقفزت إلى أعلى المقعد. مرر يده بحنان على ظهرها وقال:

– "Poor little soul" (أيتها الروح الصغيرة المسكينة).

بعد ذلك نهض من المقعد, وعبر الطريق, واتجه نحو الجهة التي كانت تتلألأ فيها أضواء السينما بألوانها المختلفة.

كان العرض قد بدأ. ولم يكن هناك ازدحام في الردهة, بل كان هناك عدد قليل من الأشخاص يتفحصون صور الأفلام القادمة. كانت هذه الصور معلقة على لوحات كبيرة وصغيرة, وتعرض مشاهد مختارة من قصص تلك الأفلام.

كانت ثلاث فتيات أنجلو-هنديات شابات ينظرن إلى الصور بشغف واهتمام. وكان في تصرفهن قدر من الاستقلال والثقة, مع المحافظة الكاملة على الاحترام اللائق للجنس الآخر.

وقف الشاب يشاهد الصور معهن, ولكن على مسافة مناسبة. كانت الفتيات يتبادلن المزاح والضحك, كما كن يبدين آراءهن حول الفيلم.

وفجأة همست إحدى الفتيات, وكانت أكثر جمالًا ومرحًا من رفيقتيها, بشيء في أذن الفتاة الأخرى. فضحكت هذه بصوت عالٍ, ثم خرجت الفتيات الثلاث وهن يضحكن.

لم يبدُ أن الأمر ترك أثرًا في الشاب. وبعد قليل خرج هو أيضًا من مبنى السينما.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساءً, وكان الشاب يسير على رصيف شارع مال, يتجول كما فعل من قبل بلا هدف واضح.

كان في أحد المطاعم عازفو أوركسترا يؤدون الموسيقى. وكان الزحام في الخارج أكثر منه في الداخل. وكان معظم الواقفين من سائقي السيارات, وسائقي العربات, وبائعي الفاكهة الذين فرغوا من بيع بضائعهم ووقفوا يحملون سلالهم الفارغة. وكان بينهم بعض المارة الذين توقفوا أثناء سيرهم ليستمعوا, وبعض العمال, وبعض المتسولين.

وكان هؤلاء, على ما يبدو, أكثر شغفًا بالموسيقى من أولئك الموجودين في الداخل؛ إذ لم يكونوا يثيرون ضجيجًا أو فوضى, بل كانوا يستمعون إلى الألحان في صمت وهدوء, مع أن الأنغام والآلات كانت غريبة عنهم.

توقف الشاب للحظة, ثم تابع طريقه.

وبعد أن سار مسافة قصيرة، لمح متجرًا كبيرًا للموسيقى الإنجليزية، فدخل إليه دون تردد. كانت في كل جانب خزائن زجاجية توضع فيها أنواع مختلفة من الآلات الموسيقية الإنجليزية. وعلى طاولة طويلة صُفّت كتب صغيرة ذات صفحتين تحتوي على أغانٍ غربية رائجة. كانت أغلفتها جميلة وملونة، لكن ألحانها كانت سطحية وضعيفة. ألقى عليها نظرة سريعة عابرة، ثم تركها واتجه نحو الآلات الموسيقية.

تأمل غيتارًا إسبانيًا معلقًا على أحد المسامير بنظرة ناقدة، ثم قرأ بطاقة السعر المعلقة بجانبه. وعلى مسافة قريبة منه كان هناك بيانو ألماني كبير. رفع غطاءه، وجسّ بعض مفاتيحه بأصابعه، ثم أعاد الغطاء إلى مكانه.

وعندما سمع أحد العاملين في المتجر صوت البيانو، تقدم نحوه وقال:

– مساء الخير يا سيدي. هل يمكنني أن أقدم لك خدمة؟

– لا، شكرًا. نعم، أعطني قائمة أسطوانات الغراموفون لهذا الشهر.

أخذ القائمة ووضعها في جيب معطفه، ثم خرج من المتجر واستأنف سيره.

وفي الطريق مرّ بكشك صغير لبيع الكتب, فتوقف هناك أيضًا. قلب صفحات عدد من المجلات الجديدة, وكلما أخذ مجلة أعادها بعناية إلى مكانها, ثم واصل طريقه.

وبعد قليل جذبه متجر للسجاد, فتوجه إليه. كان صاحب المتجر, وهو رجل يرتدي جبة طويلة ويضع قلنسوة على رأسه, قد استقبله بحفاوة.

قال الشاب:

– أريد فقط أن ألقي نظرة على هذا السجاد الإيراني. لا تنزلوه, أستطيع رؤيته من هنا. كم سعره؟

قال البائع:

– ألف وأربعمائة واثنان وثلاثون روبية.

قطّب الشاب حاجبيه, وكأن تعبير وجهه يقول: "أوه, إنه غالٍ إلى هذا الحد!"

فقال صاحب المتجر:

– اختر ما يعجبك, وسنقدم لك أكبر قدر ممكن من التخفيض.

قال الشاب:

– شكرًا, لكنني جئت الآن فقط لألقي نظرة.

– تفضل وانظر كما تشاء. اعتبر المتجر متجرك.

وبعد ثلاث دقائق خرج الشاب من المتجر أيضًا.

كانت الوردة نصف المتفتحة ذات اللون الوردي القاني، المثبتة في عروة معطفه، قد خرجت قليلًا من مكانها. وبينما كان يعدّلها، ظهرت على شفتيه ابتسامة خفيفة غامضة، ثم عاد إلى جولته.

كان الآن يمر أمام مباني المحكمة العليا. وعلى الرغم من أنه قطع مسافة طويلة منذ بداية تجواله، فإن حيويته الطبيعية لم تتغير. لم يشعر بالتعب، ولم يصبه الملل.

في هذا الجزء من الرصيف كان عدد المارة قد قلّ، وأصبح بينهم فراغ أكبر. حاول أن يدير عصاه المصنوعة من الخيزران حول إصبعه، لكنه لم ينجح فسقطت العصا على الأرض.

قال:

– أوه، آسف.

ثم انحنى والتقطها.

وفي هذه الأثناء كان زوجان شابان يسيران خلفه، فتجاوزاه. كان الشاب طويل القامة، يرتدي بنطالًا أسود من قماش الدريل وسترة جلدية ذات سحّاب. أما الفتاة فكانت ترتدي شلوارًا واسعًا من الساتان الأبيض ومعطفًا أخضر اللون. كانت ممتلئة الجسم، وكان شعرها مضفورًا في جديلة سوداء طويلة تتدلى إلى ما تحت خصرها. وكلما مشت كانت نهاية جديلتها تقفز وتتحرك، فتصطدم بجسدها الممتلئ مرارًا.

كان هذا المنظر، بالنسبة إلى الشاب الذي أصبح يمشي خلفهما الآن، ذا جاذبية خاصة.

سار الزوجان فترة في صمت، ثم قال الشاب شيئًا، فردت الفتاة فجأة بانفعال:

– كلا، أبدًا. كلا، أبدًا. كلا، أبدًا.

قال الشاب بنبرة ناصح:

– اسمعي كلامي. الطبيب صديقي، ولن يعرف أحد بالأمر.

– لا، لا، لا.

– أقول لك إنك لن تشعري بأي ألم.

لم تجبه الفتاة.

قال:

– ماذا سيشعر والدك من الحزن؟ فكري قليلًا في سمعته أيضًا.

صرخت:

– اصمت, وإلا فسأفقد عقلي!

منذ أن بدأ الشاب جولته في المساء, كان قد رأى وجوهًا بشرية كثيرة, لكنه لم ينجذب إلى أي وجه منها. وربما لم يكن في تلك الوجوه ما يستحق الاهتمام, أو ربما كان هو غارقًا في عالمه الخاص بحيث لم يكن يكترث بالآخرين.

لكن هذا الثنائي الغريب, الذي بدا كأنهما شخصيتان خرجتا من قصة, استطاع فجأة أن يأسر اهتمامه, وجعله شديد الفضول لسماع المزيد من حديثهما, وربما رؤية وجهيهما عن قرب إن أمكن.

وفي تلك اللحظة وصل الثلاثة إلى تقاطع مكتب البريد العام. توقف الشاب والفتاة لحظة, ثم عبرا الطريق واتجها نحو طريق مكلود.

أما الشاب صاحب المعطف, فبقي واقفًا في شارع مال. وربما كان يعتقد أنه إذا تبعهما فورًا فقد يشكان في أنه يراقبهما, ولذلك كان عليه أن ينتظر قليلًا قبل أن يلحق بهما.

عندما ابتعد أولئك الأشخاص نحو مائة ياردة تقريبًا, أراد أن يندفع وراءهم مسرعًا, لكنه لم يكن قد عبر نصف الطريق حتى جاءت شاحنة محملة بالطوب من الخلف كأنها زوبعة, فسحقته تحت عجلاتها ومضت باتجاه طريق ماكليود. سمع سائق الشاحنة صرخة الشاب, فخفّف سرعة السيارة للحظة. ثم أدرك أن أحدًا قد وقع تحت عجلات الشاحنة, فاستغل ظلام الليل وفرّ بها هاربًا. بدأ اثنان أو ثلاثة من المارة الذين شاهدوا الحادث يصيحون: "انظروا إلى الرقم, انظروا إلى الرقم!" لكن الشاحنة كانت قد اختفت تمامًا.

وفي هذه الأثناء تجمع عدد آخر من الناس. كان مفتش مرور يمر على دراجته النارية فتوقف. كانت ساقا الشاب الاثنتان قد تحطمتا تمامًا, وكان قد فقد الكثير من الدم, وكان يئن من الألم.

أُوقفت سيارة فورًا, ووُضع فيها بصعوبة, ثم أُرسل إلى المستشفى الكبير. وعندما وصل إلى المستشفى كانت لا تزال فيه بقية ضئيلة من الحياة. في قسم الطوارئ في ذلك المستشفى كان مساعد الجرّاح السيد خان وممرضتان شابتان, الآنسة شهناز والآنسة غِل, تؤديان نوبتهما. وعندما كان يُنقل على النقالة إلى غرفة العمليات, وقعت عيناهما عليه. كان معطفه الخارجي ذو اللون اللوزي لا يزال

على جسده، وكان وشاح من الحرير الأبيض ملفوفًا حول عنقه. وكانت ثيابه ملطخة ببقع كبيرة من الدم في مواضع كثيرة. وكان أحدهم، بدافع الشفقة، قد رفع قبعته الخضراء المسطحة ووضعها على صدره حتى لا يأخذها أحد.

قالت شهناز لغِل:

"يبدو أنه من عائلة محترمة، يا للمسكين."

قالت غِل بصوت خافت:

"لقد خرج متأنقًا ومزدانًا، المسكين، ليقضي مساء السبت."

"هل أُلقي القبض على السائق أم لا؟"

"لا، لقد هرب."

"يا لها من مأساة مؤسفة."

في غرفة العمليات كان مساعد الجرّاح والممرضتان، وقد وضعوا أقنعة الجراحة على وجوههم تخفي كل ما تحت أعينهم، منشغلين بالعناية به. أُرقد على طاولة من الرخام. كانت لا تزال هناك رائحة خفيفة من الزيت العطري القوي الذي كان قد وضعه في شعره. وكانت خصلات شعره لا تزال مرتبة كما هي. لقد تحطمت ساقاه بسبب الحادث، لكن فرق شعره في رأسه لم يختل.

والآن بدأوا ينزعون عنه ملابسه. كان أول ما أُزيل هو الوشاح الحريري الأبيض الملفوف حول عنقه. وفجأة نظرت الممرضة شهناز والممرضة غِل إلى بعضهما في اللحظة نفسها. ولم يكن بوسعهما فعل أكثر من ذلك. فالوجوه التي تكون عادة مرآة للمشاعر الداخلية كانت مخفية تحت أقنعة الجراحة, والألسن صامتة.

تحت الوشاح الحريري للشاب لم تكن هناك ربطة عنق ولا ياقة, بل لم تكن هناك قميص أصلًا...

أُزيل المعطف الخارجي, فظهر تحته سترة صوفية بالية فيها ثقوب كبيرة هنا وهناك. ومن خلال تلك الثقوب كان يظهر قميص داخلي أكثر بؤسًا واتساخًا من السترة نفسها. كان الشاب يلف الوشاح الحريري حول عنقه بطريقة تخفي صدره كله. وكانت طبقات من الأوساخ تغطي جسده أيضًا. وكان واضحًا أنه لم يستحم منذ شهرين على الأقل, إلا أن عنقه كان نظيفًا تمامًا وعليه قليل من البودرة.

بعد السترة والقميص الداخلي جاء دور البنطال, فعادت نظرات شهناز وغِل ترتفعان معًا مرة أخرى. كان البنطال مربوطًا بدل الحزام بقطعة قماش قديمة ربما كانت في يوم من الأيام ربطة عنق. لم تكن هناك أزرار ولا إبزيم. كان

القماش مهترئًا عند الركبتين، وفيه خدوش وتمزقات في أماكن عدة، لكنه كان يبقى مخفيًا تحت المعطف الخارجي، ولذلك لم يكن أحد يلاحظه.

ثم جاء دور الحذاء والجوارب، ومرة أخرى التقت عينا الآنسة شهناز والآنسة غِل.

كان الحذاء، رغم قدمه، يلمع جيدًا، لكن جورب إحدى القدمين كان مختلفًا تمامًا عن جورب القدم الأخرى. وكان كلا الجوربين ممزقًا أيضًا، إلى درجة أن كعبي الشاب المتسخين كانا ظاهرين منهما.

ولا شك أنه في ذلك الوقت كان قد فارق الحياة. كان جسده بلا حراك فوق الطاولة الرخامية. وكان وجهه الذي كان في البداية متجهًا نحو السقف قد استدار أثناء نزع الملابس نحو الجدار. بدا وكأن عري الجسد، ومعه عري الروح، قد جعله يشعر بالخجل، وأنه كان يحاول أن يخفي عينيه عن بني جنسه.

أما الأشياء التي وُجدت في الجيوب المختلفة لمعطفه الخارجي فكانت:

مشط أسود صغير، ومنديل، وستة آنات ونصف، ونصف سيجارة مطفأة، ودفتر صغير كُتبت فيه أسماء وعناوين، وقائمة شهرية لأحدث أسطوانات الغراموفون، وبعض الإعلانات التي كان موزعو الإعلانات قد أعطوه إياها أثناء تجواله، فوضعها في جيب معطفه الخارجي.

ومن المؤسف أن عصاه المصنوعة من الخيزران، التي ضاعت في أثناء الحادث، لم تكن ضمن هذه القائمة.

..... ***** .....